

سلسلة أبحاث جامعية يشرف على إصدارها الدكتور حامد طاهر

دراسات عربية وإسلامية

٢

المراســلات
د . حامــد طاهــر
كلية دار العلوم ــ جامعة القاهرة
ج . م . ع

الناشر : مكتبة الزهراء ــ ٨ ش عبد العزيز ــ عابدين ــ القاهرة ت ٩٢١٣٦٨

تقـــديم الجزء الثانى

فاق استقبال القراء للجزء الأول من سلسلة «دراسات عربية واسلامية» كل توقع • وهــذا ما أكــد لدينا العزم على مواصلة الجهد بنفس الحماسة والاخلاص مع الصـــبر على تحمل الصعاب التى تعترضنا •

فنحن حريصون على أن نقــدم ، فى كل مرة ، نخبة مختارة بعناية من أهم البحوث الجامعية ، على أن تصدر فى اطار جيد ، وبأقل سعر ممكن •• ومن المعروف جيدا أن الجمع بين هذه المتطلبات كلها ــ فى الوقت الحاضر ــ أمر بالغ الصــعوبة •

لكن مكتبة الزهراء ، التى تحمست معنا لهــذا العمل الثقافى منــذ البداية ــ قبلت مرة أخرى أن تصحبنا فى تلك الرحلة الشاقة بكرم وكفاءة • فلها منا أصــدق الشــكر •

كذلك فاننا نتوجه بالشــكر العميق الى أســاتذة الجامعات المصرية والعربية الذين سارعوا بارسال بحوثهم للمشاركة فى السلسلة ، ونعدهم أننا سوف نوالى نشرها تبعا لتصنيفها المناسب فى الأجزاء القادمة •

لقــد ثبت لدينا الآن أن الباحثين فى العالم العربى قادرون على أن يتعاونوا لاخراج عمل جماعى مشرف فى مجال الثقافة والبحث العلمى ، وهم بذلك لا يقلون فى شىء عن زملائهم فى العالم الغربى •

بقى أن نؤكد من جــديد أن هذا العمل انما يتوجه أساسا الى خدمة اللغــة العربية والثقافة الاسلامية •• ونحن نصــدر فى ذلك عن أكبر قدر ممكن من الجــدية ، والموضوعية ، والايمان بمســتقبل الفــكر العربى والاســلامى •

ندعو الله أن يوفقنا لأداء هــذه المهمة •

جمادى الأولى ١٤٠٤ هـ

فبــراير ١٩٨٤ م

حامد طاهر

خطــــة السلسلة

تهــدف الخطة الموضوعة لسلسلة « دراسات عربية واسلامية » الى نشر مائة بحث جامعى ، تتناول اللغة العربية وآدابها ، والثقافة الاسلاميه وفروعها . وسوف تصــدر ، باذن الله ، فى أجزاء متتابعة ، يشتمل كل جزء منها على مجموعة أبحاث متنوعة ، يعتبر كل بحث فيها قائما بذاته ، ولكنه يضيف الى المجموعة فى اطار النظرة المتكاملة عنصرا ضروريا .

أما دوافع اصــدار السلسلة ، فيمكن تحديدها فيما يلى :

أولا : توسيع دائرة البحث العلمى فى اللغة العربية والثقافة الاسلامية بحيث تتجاوز حــدود الجامعة ، وذلك للمشاركة فى اثراء الحياة الثقافية المعاصرة ، بارساء قواعد المنهج الحــديث ، والالتزام بالروح العلمية .

ثانيا : كسر الحواجز المصطنعة بين دراسات اللغة العربية والدراسات الاسلامية ، بقصد تجاوز النظرة الضيقة التى فتتت عناصر هذه الدراسات ، فى سبيل الوصــول الى النظرة التركيبية الشاملة ، التى كانت سمة الثقافة الاسلامية منذ نشأتها ، وطوال فترات ازدهارها .

ثالثــا : سد الفراغ المتمثل فى عــدم وجــود « الكتاب الجماعى » الذى تسهم فيه مجموعة من الدارسين ، يعملون فى مجال واحد ، وتشغلهم هموم ثقافية وعلمية واحــدة ، والعمل من وراء ذلك على اتاحة الفرصــة أمــام الباحثين فى الجامعات المصرية ، والعربية ، والأجنبيــة للالتقاء فى مكان واحــد ، يعرضــون فيه خلاصــة جهودهم العلمية ، وآرائهم التى يتحملون وحــدهم مسئولية الدفاع عنها .

رابعــا : الاسهام الحقيقى فى حركة احياء التراث العربى الاسلامى ، بالقاء مزيد من الضــوء على كنوزه المخطوطة والمطبوعة على الســواء ، وتقديم نماذجه الجيــدة ، وتحليل عناصر القوة فيه .

خامسـا : اثراء حركة الترجمة ، التى تعثرت فى الآونة الأخيرة ، عن طريق نشر الدراسات الأجنبية المترجمة ، التى تتناول جوانب مهمة من ثقافتنا العربية والاسـلامية ، مع تقـديمها للقارىء بتعريف كاف ، والتعليق عليها اذا لزم الأمر •

وأمـا المجالات العلمية التى تتناولها السلسلة فهى :

اللغـة العربية وآدابها :

* النحو العربى القـديم ومشكلاته •
* علم اللغة الحـديث وتطبيقاته •
* تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها •
* علوم البلاغة العربية •
* النقد الأدبى فى القديم والحديث •
* تاريخ الأدب •
* الأدب المقـارن •

الثقافة الاسلامية وفروعها

* علوم القرآن الكريم •
* العقيدة وعـلم الكلام •
* الفقه الاسلامى ، وأصوله •
* الفكر الأخلاقى ونماذجه •
* التاريخ الاسلامى والحضارة •
* الفن الاسـلامى •

وسوف تخضع الأبحاث المنشورة بالسلسلة الى عملية تحكيم علمى يقوم بهــا نخبة من كبار أساتذة الجامعات المصرية والعربية فى المجالات المذكـــورة •

وبهـــذه الصـــورة ، تطمح السلسلة الى أن تكون دائرة معـــارف انتقائية ، تدرس مسائل مختارة من الثقافة العربية الاسلامية ، وتقـــدم للقارىء — فى كل جزء منها — مجموعة منتقاه بعناية من أهم الدراسات الجامعة • كما أننا نأمل فى أن ينتظم موعد صـــدورها فى أقرب وقت ممكن •• ولكن الأهـــم هو ، أن السلسلة ترحب بكل الأبحاث الجـــادة فى المجالات السابقة ، وترجو من جميع الدارسين فى الجامعات المصرية والعربية أن يزودوها بعطائهم •• فسوف تكون ، فى النهاية ، مرآة لهم •

المشرف على السلسلة

مفهوم التطوّر في الفكر العربي

د. محفوظ عــزام

نستطيع القول بأن « التطــور » كمصطلح يعتبر من مواليد القرن التاسع عشر ، حيث شاع استعمال هــذا المصطلح فى ساحة العلم والفكر ، وذلك بظهور نظرية « لامارك » فى توارث الصــفات المكتسبة ، ونظرية « تشارلز دارون » فى الانتخاب الطبيعى وبقـــاء الأصــلح ، والنســخة المصححة لها والمعروفة بالداروينية الجديدة أو النظرية التركيبية الحديثة .

ويمكن القول ، من جهة أخرى ، بأن القرآن الكريم قد سبق هؤلاء جميعا بايراد ما يدل على مفهوم التطور ، حيث وردت فيه صــيغة الجمع « أطــوار » لتدل على عمليـــة الخلق المتدرج ، وذلك فى قوله تعـــالى : « وقــد خلقكم أطوارا (١) » ، فهذه الآية نص فى الدلالة على التدرج فى الخــلق .

كما أن مصطلح « التطور » قد ورد عنـــد « البيرونى » ، العـــالم الجيولوجى العربى المسلم بصـــيغة الجمع « التطورات » بالمعنى الحديث لهــذا المصطلح .

والواقع أن مصطلح التطور من حيث معناه اللغوى يعــد مصطلحا جــديدا على المعاجم والقواميس العربية ، حيث لم يرد فى المعاجم القديمة الا لفظ « طــور » وورد فى القرآن الكريم فى صــيغة الجمع « أطوار » .

---

(١) ســورة نوح ١٤ .

فقد جاء لفظ « طور » يدل على معنى « التارة » فتقول : طورا بعد طور ، أى تارة بعد تارة : والناس أطوار ، أى أخياف على حالات شتى ، كما جاء لفظ طور ليدل — أيضا — على معنى « الحال والضرب » قال تعالى : « وقد خلقكم أطوارا (١) » أى ضروبا وأحوالا مختلفة ، وقال ثعلب : أطوارا ، أى خلقا مختلفة ، كل واحد على حدة : وقال الفراء : أى نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ثم عظما . « والطور » و «الطوار» ما كان على حذو الشيء ، أو بحذائه ، ويقال : هذه الدار على طوار هذه ، أى حائطها متصل بحائطها على نسق واحد ، و « الطور » — أيضا — الحد بين الشيئين ، وعدا طوره ، أى جاوز حده وقدره ، وبلغ أطوريه ، أى غاية ما يحاوله ، ويقال : ركب فلان الدهر وأطوريه أى طرفيه (٢) .

أما فى المعاجم الحديثة (٣) ، فقد اشتق المحدثون من كلمة « طور » فعلين هما : « طور » ، « تطور » ، بمعنى حول من طور الى طور آخر ، وتحول من طور الى آخر ، ثم اشتقوا منهما مصدرين هما : « التطوير » و « التطور » .

وفى اللغة الانجليزية ترجع كلمة « التطور » Evolution الى مصدر لاتينى يعنى « نشر الشيء المطوى » وبهذا يعنى المدلول الحرفى للكلمة الظهور التدريجى لشيء من شيء آخر (٤) .

من كل ما سبق يتبين لنا أن مصطلح التطور يعنى — لغة — الضروب والأحوال و « الخلق المختلفة » ، كما يعنى — أيضا — « التدرج » و « التنوع » و « التناسق » و « الحد » و « الغاية » ، كما يفيد —

(١) سورة نوح ١٤ .
(٢) ابن منظور : لسان العرب ، مادة « طور » .
(٣) مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، مادة « طور » .
(٤) كانون (جراهام) : نظرات فى تطور الكائنات الحية — ص ١٣ من الترجمة العربية القاهرة سنة ١٩٦٩ .

أيضـــا — التحول أو الانتقال من شيء الى شيء آخر ، والظهور التدريجي لشيء من شيء آخر .

فاذا انتقلنا من المعنى اللغوى الى المعنى الاصطلاحى للتطور فاننا نستطيع القول بأن مصطلح التطور لم يرد صريحا فى معظم كتابات المفكرين العـــرب وعلمائه ، وانما الذى ورد هو عبارة عن ألفاظ تدل — من بعض الوجوه — على معنى التطور .

ولعلنا لا نجـــد تصريحا بمصطلح « التطور » الا عند « أبى الريحان **البيرونى** » (١) وهو عالم كبير من علماء « طبقات الأرض » يشهد له بذلك ما تركه من نظريات وآراء قيمة حول موضوع القشرة الأرضية ، وما طرأ على اليابســـة والمـــاء من تطورات خلال الأزمنة والأحقـــاب الجيولوجية المختلفة .

يقـــول البيرونى فى وصـــف العصـــور الجيولوجيـــة : « وعنـــدما تدرس السجلات الصخرية والآثار العتيقة نعـــلم أن هـــذه **التطـــورات** والتحولات لابد أن استغرقت دهورا طويلة ، تحت ضغط البرد أو الحر ، الأمر الذى لا نعرف وصـــفه أو قـــدره ... فاننا نشاهد المـــاء والهواء ، حتى فى أيامنا هـــذه يشغلان وقتا طويلا فى اتمام عملهما . **أما التطورات** التى طرأت فى العصور التاريخية فقد درست وسجلت فى الصحائف » (٢) .

فهنا نجـــد كلمة « التطور » صريحة ، وقـــد جاءت بصيغة الجمع ، كما أنها قـــد جاءت فى المعنى المراد من التطور فى أبحاث العلماء المحدثين .

واذا تركنا « البيرونى » وذهبنا الى ما كتبه مفكرون آخرون وجدنا عبارات كثيرة تدل على معنى التطور . **فالفارابى** — مثلا — **يتحـــدث** عن

(١) الشحات (على احمد) : ابو الريحان البيرونى : حياته ، مؤلفاته ، ابحاثه العلمية . القاهرة سنة ١٩٦٨ ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٢) المرجع السابق . ص ٤٠ .

تدرج الأجسام فى الحدوث فيقول : « انما شأنها (أى الأجسام) أن يكون لهـا أولا أنقص موجوداتها ، فيبتدىء منه ، فيترقى شيئا فشيئا ، الى أن يبلغ كل منها أقصى كماله » (١) ويقول **« ابن مسـكويه »** فى معرض حـديثه عن مراتب الموجودات واتصال بعضها ببعض انه قـد « اتصـل آخر كل نوع بأول نوع آخر ، فصـار كالسلك الواحـد الذى ينظم خرزا كثيرا ، على تأليف صحيح ، وحتى جاء من الجميع عقـد واحد » (٢) .

ويفصـل **« ابن خلدون »** فى مقدمته هـذا التدرج والترتيب فى الخلق تفصـيلا بديعا ، حيث أننا « نشاهد هـذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها ، على هيئة من الترتيب والاحكام ، وربط الأسباب بالمسببات ، واتصال الأكوان بالأكوان ، واستحالة بعض الموجبات الى بعض لا تنقضى عجائبه ، ولا تنتهى غاياته ... ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعـادن ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، على هيئة بديعة من التدريج ... ومعنى الاتصال فى هـذه المكونات أن آخر كل أفق منهـا مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذى بعـده ، واتسع عالم الحيوان ، وتعددت أنواعه ، وانتهى فى تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية ، ترتفع اليه من عالم القردة الذى اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية والفكر بالفعل وكان ذلك أول أفق الانسان بعده . وهذا غاية شهودنا » (٣)

ويتحـدث **« ابن مسكويه »** عن المنزلة قبل الأخيرة لتطور النبات فيقول : « ان أول هـذه المرتبة متصـل بما قبله ، وهو فى أفقه ، وهو ما كان من الشجر على الجبال وفى البرارى المنقطعة ، وفى الغياض وجزائر البحار ، لا تحتاج الى غرس ، بل ينبت لذاته ، وان كان يحفظ نوعه بالبذر ، وهو ثقيل الحركة بطىء النشوء ، ثم يتدرج من هـذه المرتبة .. ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهى الى الأشجار الكريمة » (٤) .

---

(١) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة — الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ ص ٢٦ .
(٢) ابن مسكويه : الفوز الأصغر — طبعة بيروت سنة ١٣١٩ هـ ص ٨٦ .
(٣) ابن خلدون : مقدمة — القاهرة دار الشعب ص ٨٨ — ٨٩ .
(٤) ابن مسكويه : الفوز الأصغر — ص ٨٧ .

فالقول بأن الأجسام تترقى شيئا فشيئا الى أن يبلغ كل نوع منها أقصى كماله وأنها بطيئة النشوء ، وأن بعض الموجودات يستحيل بعضها الى بعض وأنها متصلة بحيث تشكل سلسلة مترابطة الحلقات ، كل هذا يفهم منه أن هؤلاء المفكرين يتحدثون عن تطور الكائنات وترقيها فى سلم متدرج وترتيب محكم .

وفى عصرنا هذا بذلت محاولات كثيرة لتعريف التطور علميا ، فمن هذ التعريفات القول بأن التطور هو « الاستمرار أو الاتصال المنشىء Genetic Continuity » وأنه نظام التغير الذى لا يمكن عكسه وأنه نمو متدرج يؤدى الى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقيها بلاحقيها ... وهو فى الجملة انتقال من المختلف الى المؤتلف ، ومن غير المتجانس الى المتجانس ، ومن اللامحدود الى المحدود أو بالعكس (١) . ويرى كونجر (G. P. Conger) أن التطور يستلزم ثلاث أفكار أساسية هى : التغير فى الزمان ، والنظام أو الترتيب المتسلسل ، والأسباب الملازمة أو الباطنة (٢) .

على أية حال ، للتطور فى الفلسفة الحديثة عدة معان : أولها : أن التطور هو النمو ، والمقصود به أن ينتقل المبدأ الداخلى من حال الكمون والبطون الى حال الظهور ، حتى يبلغ غايته ، كمبدأ الحياة الذى ينمو وينبسط ، فيخلق فى العادة أطوارا وصورا مختلفة ، كالنطفة والعلقة ، والمضغة ، والعظام ، والعضلات ... الخ .

ويمكن القول بأن هذا المعنى يندرج تحته النظرية التى قال بها « **النظام** » وهى نظرية « الكمون » أو « البطون » التى أخذها من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة .

---

(١) مجمع اللغة العربية : المعجم الفلسفى — طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ ص ٤٧ .

(٢) د . امام (امام عبد الفتاح) : مدخل الى الفلسفة — طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ ص ٢٢٩ .

وثانى معانى التطور ، أنه التبدل التدريجى البطىء بتأثير الظروف الخارجيـــة •

وثالث هـــذه المعانى أن التطور هو التبدل الموجه الى غاية ثابتـــة على مراحل متعاقبة يمكن تحـــديدها مسبقا •

أما رابع هـــذه المعانى أن التطور هو الانتقال من البسيط الى المركب ومن المتجانس الى غـــير المتجانس ، أو من الأكثر تجانســـا الى الأقـــل تجانسا (١) وهذا المعنى هو الذى ذهب اليه «هربرت سبنسر H. Spencer وذلك فى كتابه « المبادىء الأولى » الذى نشره عام ١٨٦٢ •

يرى « سبنسر » أن العالم ككل انما يعبر عن عملية تطورية هائلة ، وأدوات هذه العملية انما توجد فى « المادة » و « الحركة » و « القوة » • ولقـــد صـــاغ « سبنسر » قانونه على النحو التالى : « التطور هو تكامل المـــادة وما يصاحبها من تشتت الحركة ، وخـــلال هـــذا التكامل ، وهذا التشتت تنتقل المادة من حالة التجانس غير المتعين وغير المترابط الى تنافر أو لا تجانس متعين ومترابط ، وأثناء ذلك يطرأ على الحركة المحفوظة تحول مواز للتحول السابق » (٢) • وهـــذا يعنى أن جميع التغيرات تمثل — فى رأى سبنسر — عملية تكامل ، أو تكامل وتمايز •

ويسمى التطور الفردى اذا دل هـــذا التطور على نمو الفرد وانتقاله من نقطة الابتداء الوحيدة الخلية الى سن الرشد الكثيرة الخلايا • بينما يسمى التطور بالتكوين النوعى اذا دل على تبدل النوع الواحـــد الى أنواع كثيرة مختلفة •

ويندرج تحت اسم الفيلسوف التطورى كل فيلسوف مؤمن بالتغير

---

(١) صليبا (د • جميل) : المعجم الفلسفى ج ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
(٢) د • امام (امام عبد الفتاح) : مدخل فى الفلسفة ص ٢٣٠ — ٢٣١ .